تنظيم ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني بين تلبية المقدّس والتواصل الحضاري

دهان سليمان
جامعة حسيبة بن بوعلي، الشلف

أ. د. نويصر مصطفى
معهد التاريخ،جامعة الجزائر 2

ملخص
يعتبر ركب الحج الجزائري من اهم المظاهر التي تبين قوة الترابط الداخلي بين السلطة والمجتمع بالجزائر العثمانية، كما يُعبر مسير الركب إلى البقاع المقدسة عن مدى التواصل الحضاري بين الجزائر وكل الأقطار الواقعة في طريق الحج، والمقال محاولة لتبيان مظاهر هذا التلاحم الداخلي بين الجزائريين والتواصل الخارجي مع الشعوب الأخرى التي تدخل في حركة الحج.

الكلمات المفتاحية: الحج؛ أمير الركب؛ تنظيم الحج؛ العلاقات الحضارية؛ الجزائر العثمانية؛ مكة.

Abstract
The convoy of the Algerian pilgrimage is one of the most important manifestations that show the strength of the internal link between authority and the Algerian society under the Ottoman Empire. The path to the holy sites reflects the extent of civilized communication between Algeria and all the countries located on the pilgrimage route. The article attempts to show the internal cohesion between Algeria and other countries involved in the pilgrimage movement.

Keywords: pilgrimage; the commander of the convoy; the organization of the pilgrimage; civilizational relations; Algeria in the ottoman period; Makah.

Résume
L'organisation de convoi de pèlerinage la Mecque exprime la nature de la relation entre l'Autorité et la société algérienne à l'époque ottomane. Il nous montre le Voyage de passagers vers le lieu saint partout dans la communication civilisée entre l'Algérie et toutes les régions situées dans la route du pèlerinage. L'article est une tentative de montrer solidité interconnexion entre les Algériens et la communication externe avec d'autres peuples qui participé dans le mouvement du pèlerinage.

Mots-clés: pèlerinage; le commandant du convoi; l'organisation du pèlerinage; relations civilisationnelles; Algérie dans la période ottomane; la Mecque.

مقدمة

إن أداء فريضة الحج من الأمور التي حرص الجزائريون على أدائها مند دخول الإسلام، ولم يكن العهد العثماني بالجزائر بدعا من العصور فكانت تخرج منها قوافل عدّة قاصدة بيت الله الحرام، ففي كلّ عام يركب منها وفد يؤمّ الحجاز يحدوه الإيمان وإقامة الشعيرة، ودأب الجزائريون على تنظيم الركب وتسييره من عدّة جوانب مادية وبشرية، كما حرصوا على نسج مظاهر حضارية خلال مسيرهم إلى الحجاز ذهابا وعودةً، والإشكالية المطروحة: ما هي الأُطر التنّظيمية لركب الحج الجزائري، وما هي القيم والأدوار التي يكوّنها المسير إلى بيت الله الحرام على هامش أداء الفريضة؟

إن أول جانب نبدأ بالإجابة فيه يتمثل في النواحي التنظيمية التي اهتم الجزائيون بتجسيدها في كل قافلة تقصد الحجاز، لعلمهم بصعوبة المقصد بغير التنظيم، أو في حالة ضعفه وقلته.

1. تنظيم الركب

ينظم ركب الحج الجزائري من عدّة جوانب، فهناك جانب تجهيزي يشمل لوازم السفر ومتطلباته، وهناك تنظيم بشري أشبه ما يكون بإدارة متنقلة لتسيير الركب مند خروجه إلى عودته.

1.1 التنظيم التجهيزي

ويكون تجهيز الركب على مرحلتين، المرحلة الأولى وهي التي تسبق انطلاق الركب وخروجة من الجزائر، والمرحلة الثانية والتي تكون متزامنة مع السير بحسب ما تقتضيه المرحلة التي مرّ بها الركب.

ففي المرحلة الأولى جرت عادة المسلمين عامة والجزائريين خاصة بمجرد عزمهم على السفر إلى الحجاز قصد أداء الفريضة يتم تداول وانتشار عبارة "إلى مكة"، في كل الجهات والنواحي إيذانا ببدء الاستعداد للسفر حيث يتم إعداد البغال وإحضار الخيام وتجتمع الجماهير جماعات (تشرشل هنري، 1974)؛ ويبدأ تنظيم الركب وتجهيزه من كل النواحي، إذ دأب الجزائريون والمغاربة بصورة عامة بتجهيز الركب قبل خروجه من البلد بشراء الإبل وكرائها، وهو ما يبعث نشاطا على حركة التجارة في الجمال والخيول في تلك الأيام التي تسبق الخروج، كما كانت تتم عملية شراء الحبوب المجففة كالفول وعلف الرواحل، وادخاره للطريق(الزياني، 1991)؛ ويتم تهيئة البضاعة المحلية لتكون أثناء الرحلة الطويلة بمثابة عُملة يُقايض بها، ويأخذ مقابلها أنواع من البضاعة التي يحتاج إليها في الطريق(زمامة، 1984).

أما المرحلة الثانية، فتكون خلال سير الركب فهو تنظيم مرحليّ، أي بعد قطع مسافة أو مرحلة معينة، يتم استغلالها في إعادة التنظيم من جديد، وذلك بالتزود بما نقص من مواد. (المكناسي، 2003)

2.1 التنظيم البشري

أما التنظيم البشري فيتجسد من خلال عدّة شخصيات تسهر على السير الحسن للركب في كل ظروفه وأحواله، إذ يوجد خبير بالمياه مهمته أن يسبق القافلة في السير والاستقصاء عن وضعية المياه من حيث الوفرة أو الشح، وعلى اثر دلك يتخذ الركب إجراءات احترازية بغية التأقلم مع الظرف القادم كما نجد العلَّام وهو يدعى مجازا بهذا الاسم، مهمته وضع ورفع الأعلام لتنبيه الحجاج أو القافلة بالإسراع في مرحلة ما أو التمهل في مرحلة أخرى(المجاجي، 2008)؛ أو بالخروج أو وضع الأمتعة قصد المبيت، وحتى توجيه مسار القافلة (الورتلاني،1908).

ويوجد شخص آخر يدعى بالبراح، مهمته هو إيصال المعلومات إلى الركب، دون أن يسبب ذلك في تداخلا بين مهامه التي يضطلع بها مع العلام إذ أنهما يعملان مع بعضهما البعض (الدرعي،2011)؛ وتستعمل الطبول أحيانا أخرى لمخاطبة الرفاق وإشعارهم بأوقات النوم، الصحو ومواقيت الصلاة، وساعات الرحيل، لهذا فإن الطبول الكبيرة تستعمل كأداة لتجميع الناس وإبلاغهم لما هم بحاجة إلى الاستماع إليه (التازي، د.ت)؛ يضاف إلى كل هؤلاء العاملين الكاتب الذي يقوم بتسجيل كل ما يخص الركب ماديا كان أو معنويا طوال مدة السفر (المجاجي، 2008)؛ وتوجد فئة أخرى تعرف بالحفاظة، وهم من يحفظون المارة في طريقهم، حالهم حال الجند، يتلقون أجورهم لقاء هذه الخدمات (الدرعي، 2011).إلا أن أهم شخصية في قافلة الحج هي شخصية أمير الركب[1]، فهو يجسد القيادة، وكل الشخصيات التي ذكرت تعمل تحت إمرته وسلطته، ولمحورية هذه الشخصية في حركة الحج الجزائري خلال العهد العثماني سنعطيها ومهام إمارة الحجيج نوعاً من التفصيل.

1. هو الشخصية المحورية لقيادة ركب الحج لكل دولة، يمثل دوره منصبا إداريا وسياسيا وقضائيا في نفس الوقت.

2. إمارة الحج

1.2 لمحة تاريخية عن تطور إمارة الحج

ظهرت إمارة الحج أول مرة للنيابة عن الرسول صل الله عليه وسلم، وذلك بأمر المصطفى عليه الصلاة والسلام لابي بكر الصديق رضي لله عنه أن يحج بالناس، ومنع الكفار من الاشتراك فيه وذلك في السنة (9هـ/ 630م) وفيها نزلت سورة التوبة (ابن كثير، 1997)؛ وهذه الحجة سبقت حجة الوداع للرسول علية الصلاة والسلام بسنة (الدجاني، 1982)؛ وأصبح ينظر لإمارة الحجيج أنها زعامة في الغالب ومند ذلك اليوم تحولت إمارة ركب الحج واجب منوط بالخلفاء فكانوا لا يلقون بالأمر إلا لواحد يكون مقدما فيهم، وبسقوط الخلافة العباسية درج أقوى أمراء المسلمين كمماليك مصر وسلاطين آل عثمان على إقامة أمير للحج يقود الحجيج في كل عام، ليصُبغ المنصب بالصبغة الدنيوية في هذه الفترة الأخيرة (علي عمر، 2001).

2.2 مكانة إمارة الحجيج ومواصفات الأمير

كانت إمارة الحج لا تسند إلا لأمثل عالم المعروف بالاستقامة، لأنه يكون ممثلاً لبلاده ولنخبة علمائها، فهو يجتمع بجل العلماء في الأقطار الإسلامية ويتبادل معهم الإجازات والتأليف ويشارك في المناظرات العلمية التي كانت تعقد لحل المشاكل العويصة، فكانت مهمة أمير الركب في رحلاته الإفادة والاستفادة (التازي، د.ت)، وهذا ما يجعل مكانته تبقى عالقة في الأذهان، فكان السعي إلى توليها في شتى البلدان الإسلامية والمنافسة على هذا المنصب شديدة لأنَّها ترفع من قدره، وتزيد من شأنهم عزَّة وحماية ومنعة (مالكي، 1999).

كما يذكر لنا "جوزيف بيتس"[2] صورا عن تلك المكانة عندما يلج الركب منطقة جديدة فيقول: "ويستقبل أهل المدن التي تتوقف عندها القافلة أمير الحج ببهجة بالغة لمكانته الدينية، فسعيد هو من يستطيع تقبيل يده، فإن لم يستطع فعباءته، ويمضي أمير الحج في موكب فاخر تصاحبه الأعلام والطبول، ليس هذا فحسب، بل أن النسوة يتزاحمن فوق اسطح المنازل التي يمر أمامها موكب أمير الحج لرؤية المنظر البهيج، وتضع الواحدة منهن أربعة أصابع على شفتيها برقة وتزغرد" (بتس، 1995، ص22).

3.2.1 مهام أمير الحج وصلاحياته

أوردت المصادر الرحّلية مهام وصلاحيات أمير الحج، وإذا أعطينا تقييما أوليا فإننا نقول أنها متعددة وكبيرة للغاية، تتمحور حول الأمور التنظيمية غالبا، وتشمل المهام المالية والقضائية والدينية والاجتماعية والعسكرية.

ففي المهام التنظيمية فهو الوحيد الذي يخول له إعطاء الأوامر للقافلة بالتوقف في كل مدينة يمر بها الركب، لإتاحة الفرصة لمن يرغب في الالتحاق بالقافلة من سكان تلك البلاد بغية الحج(بتس، 1995)؛ وهذه الحقيقة أوردها الرحالة المغربي أبي سالم العياشي[3]، لما وصل الركب الذي سار فيه إلى منطقة توات الجزائرية (العياشي، 2006)؛ إضافة لمسؤولية كراء الدليل وإرساله لاستكشاف المنطقة التي سيفدون عليها للتداعيات الأمنية والتنظيمية، وله مهام

2. هو جوزيف بتس شاب انجليزي ولد مدينة اكسون بانجلترا، غادر بلده مغامرا في سن السادسة عشرة، عمل بحارا في إحدى السفن، وقع أسيرا عند أحد الجزائريين، عاش عبدا بالجزائر مدة 15 سنة، اصطحبه سيده معه في رحلته إلى الحج فكتب رحلة حجازية التي كان منطلقها الجزائر عبر البحر إلى الإسكندرية ومن مصر إلى الحجاز برا. انظر مقدمة محقق الرحلة: جوزيف بتس، رحلة جـوزيف بتس (الحاج يوسف) إلى مصر ومكة والمدينة المنورة، تر: عبد الرحمان عبد الله ياسر الشيخ، مطابع دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، د.ط، القاهرة، مصر، 1995، ص7، 8.

3. هو عبد الله بن محمد بن أبي بكر بن يوسف بن موسى العياشي (1628- 1679)، الملقب بعفيف الدين، ينتمي إلى قبيلة آيت عياش بسجلماسة المغربية، من أشهر رحالي الغرب الإسلامي، رحلته هي ماء الموائد، انظر العياشي، المصدر السابق، ص 29

أخرى مثل كراء الأديرة للمبيت، وتأمين المؤونة بالشراء عند دخول الركب للمدن الكبرى، ويشرف على أعمال السقاية وإعلاف الخيول والجمال، ويعطي أوامره للركب عن طريق شخص البراح (المجاجي،2008).

وفي الجانب المالي له صلاحيات نقل الأموال والإرساليات وأوقاف الحرمين، وتوزيع الإتاوات لشيوخ القبائل للحماية (علي عمر،2001)؛ وهو المسؤول عن الشراء من أعراب الطريق أو الكراء من عندهم بالتفاوض مع شيخ تلك الأعراب أو تلك القبيلة وذلك مخافة الغدر (الزياني، 1991).

وفي المجال القضائي كان أمير الركب يقوم بفض منازعات الحجاج فيما بينهم، وأيضا مع سكان المناطق المطروقة، ومع الأركُب الأخرى في حالة الالتقاء في مكان معين، كما يشرف على الجانب الاجتماعي من خلال النظر إلى الفقراء والمرضى بالركب وتفقد أحوالهم، وكذلك الحال في الجانب الديني، يقوم أمير الركب بإلزام الحجيج بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها ويصلي بهم، وفي الجانب العسكري الذي يعتبر من أهم الجوانب إذ من خلاله يتم تامين الحماية الكاملة والشاملة للركب من طرف الجند (علي عمر، 2001).

4.2.1 أمراء الحج في الجزائر العثمانية

لقد تعددت الشخصيات التي ثبت توليها لمنصب إمارة الحج الجزائري في العهد العثماني ومن بينها شخصية تعرف بمحمد بن محمد بن المسعود من بلاد "سدّ وكال"، وقد ذكره العياشي في رحلته، وقال كان هدا الركب الذي قاده محمد بن محمد بن المسعود عائدا من الحجاز، والتقى به وهو في طريقه إلى طرابلس (العياشي، 2006).

كما عرفت الجزائر شخصية أخرى ثبت توليها لإمارة الحج وهو عبد الكريم الفكّون بن محمد بن عبد الكريم الفكّون التميمي القسنطيني المتوفى سنة 1073هـ/ 1662م الذي كان يقوم بالتدريس والإمامة بالجامع الكبير بقسنطينة، ثم أضاف إليها وضيفة قيادة ركب الحج الجزائري إلى الحجاز(الفكون، 1987)؛وقد بقيت إمارة الحج في أيدي عائلة الفكون[4] لقرون عديدة، وكان آخر من تولاها محمد بن عبد الكريم بن بدر الدين الذي أدركه الاحتلال الفرنسي وهو يناهز الثمانين عاما من عمره (بوعبدلي، د.ت). كما يخبرنا الدرعي عن شخص يسمى "سيدي بلقاسم" وهو شيخ كبير قيل له انه كان أميرا للركب في زمانه (الدرعي، 2011)، وهذه الشخصية الأخيرة لم أعثر لها على ترجمة كافية.

2. المتاعب والمصاعب التي تواجه ركب الحج

يعترض الركب وهو يشق طريقه في الفيافي مشاكل عدّه، يمكن أن تقسم في المجمل إلى نوعين، مشاكل ذات طابع بشري تشمل إغارة القبائل على الركب من أعراب البوادي واللصوص وغيرهم وقد اتفقت العديد من الرحلات الحجازية في هذه الجزئية من المصاعب(الورتلاني، 1908)؛ كذلك قلة الزاد، والمرور بمناطق تعاني من اضطرابات اجتماعية وثورات ومعارك وصراعات بين القبائل تؤدي إلى هلاك أعداد هائلة من البشر، وهو ما يجعل الركب على المحك عند وصوله إلى هذه الأقطار، زيادة على الرعب الذي تبثه في نفوس الحجاج (القدوري، د.ت)؛ بالإضافة إلى المناطق الموبوءة بأمراض فتاكة تهلك القوي، وتقضي على الحياة في بعض الحالات (ظريف، د.ت)؛ واحيانا تعرض الركب للمكوس والابتزاز من قبل حكام بعض الأمصار، ولنا فيما ذكره المصعبي إبراهيم ابن بحمان[5] اكبر دليل على ذلك حيث يذكر الابتزاز الذي تعرض له في مصر في فترة حكم إبراهيم باشا الكبير، حيث كان يحتجز

4. من أشهر العائلات القسنطينية، ذات تاريخ عريق، من أصول قبيلة تميم العربية، منها شعراء وعلماء وقضاة ومتصوفة، وشهدا قدمتهم بعد الغزو الإسباني لتونس سنة 1535، ويعتبر عبد الكريم الفكّون أحد أبرز رجالاتها في عصره فقد كانت تتمتع بنفوذ علمي وروحي، انظر، مقدمة كتاب منشور الهداية، المصدر السابق، ص 7.

5. هو إبراهيم بن بحمان بن أبي محمد بن عبد الله ابن عبد العزيز الثميني المصعبي، توفي في 1817، له رحلة حجازية منظومة بالشعر الفصيح.

شيخا كبيرا أو شخصية مرموقة ويطلب من مرافقيه فديته ليتركه و سبيله بالإضافة إلى نهب الأمتعة (المصعبي، 2006).

ومن جملة المشاكل ذات الطابع الطبيعي والبيئي تأتي في مقدمتها المياه غير صالحة للشرب (Ben chaneb,1900)؛ وتعرضهم للبرد وهو من اكبر المصاعب، وصعوبة السير في المفاوز والبوادي المهلكة بواسطة قوافل من الإبل والخيل، إذ تصبح أحيانا عبئ على الحاج حيث تنهار من الأحمال الثقيلة جراء المسافات الطويلة، زيادة على تكاليف أكلها وشربها التي ليست بالأمر الهين، وكذلك الدروب الموحشة والقفار الجرداء من كل شيء الممتدة لمسافات طويلة وأياما عديدة لا يعثر خلالها على أي اثر للماء في كثير من الأماكن، وان وجد يكون في أحيان كثيرة ملحا أجاجا أو شرابا كالمهل (ظريف، د.ت).

3. الأدوار الحضارية لركب الحج الجزائري

أما فيما يخص الشق الثاني في هذا المقال حول الأدوار الحضارية يكوّنها المسير إلى بيت الله الحرام على هامش أداء الفريضة، لقد تعددت هذه الأدوار لتي رسمها ركب الحج الجزائري على غرار الأركاب الأخرى إذ أوجد حركية اجتماعية وعلمية واقتصادية وحتى السياسية، بين جغرافيا المنطلق وهي الجزائر، وجغرافيا الطريق وهي الأمصار التي يعبر بها الركب، وجغرافيا الوصول وهي ارض الحجاز، ويمكن أن نجملها فيما يلي:

1.3 الدور الاجتماعي لركب الحج

إن المقصودبالدور الاجتماعي لركب الحج، معرفة كل التفاعلات الاجتماعية بمختلف مظاهرها، التي رسمها لنا ركب الحج في حركته الخارجية خلال سيره إلى الحجاز ذهابا وإيابا. فقد قيل أن السفر إلى مكة في أركُب الحجيج أنها من أروع مظاهر السفر في أزهى عصور الإسلام (مركز الأهرام، 1987)؛ وقد أثبتت النصوص الرحّلية وضوح التفاعلات الاجتماعية والترابط الذي حصل بتفاعل الركب مع الجغرافيا، فعبد الرحمان المجاجي الجزائري يخبرنا عن مدينة طرابلس الليبية ويصف أهلها بالجود، ويعطينا أسماء لشخصيات، واسم لعائلة كبيرة وعريقة حملت على عاتقها تأمين الحماية لركب الحج الجزائري وحتى المغربي خصوصا في المرحلة التي تلي طرابلس لما عرف عنها من مشقة وعسر، وأوضح العلاقة الوطيدة بين كبير هذه العائلة مع أمير الركب الذي سار فيه المجاجي (المجاجي، 2008)؛ ويذكر ابن مسايب التلمساني[6] في رحلته معلومات في نفس السياق عن دوار "بوحلوان" بمعسكر وكرّر ذلك وزاد عليه في حديثة عن سكان مدينة الجزائر ومدينة الكاف التونسية، والأمر نفسه في مدينة القاهرة المصرية حيث كانت أركُب الحجيج سببا في خروج المسلمين جميعا للحج متناسين النسب الجغرافي والقبلي، تجمعهم وحدة الدين والفريضة ويظهر ذلك في الاحتفالات التي تقام قبل خروج الركب المصري للحج، محملين بكسوة الكعبة وكيف يطوفون بها في كل البلدة قبل الخروج (Ben chaneb,1900)؛ وعن التقاء الركب المصري بركائب أخرى منها الجزائري والفيلالي والتونسي في ركب واحد قاصدين الحجاز في جو بهيج ملئ بالبركات والمشاعر التي لا توصف، وكان يسبق هذا إلتحاق بعض الحجاج التونسيين والطرابلسيين بالركب الجزائري (المصعبي، 2006)؛ وحتى سفر الحجاج الجزائريين مع الركب المغربي خاصة من منطقة توات (العياشي،2006).

2.2 الدور العلمي والثقافي لركب الحج

لطالما كانت الرحلة المشرقية رمزا للتفاعل العميق والوحدة المتأصلة في دار الإسلام والعروبة (الأنصاري، 1992)؛ ولطالما كان ركب الحج بمثابة سيل جارف من العلوم مثله مثل الوادي يلج الفيافي فيعم خيره وبركاته الأقطار والعباد، فركب الحج من ابلغ الصور التي تظهر التواصل العلمي والثقافي بين الأقطار مشرقا ومغربا، فهو بمثابة مكتبة متنقلة لما تحتويه من علم غزير سواء كان في الكتب أو في الصدور، فكان العلماء يتواجدون في ركب الحج

6. هو أبو عبد الله الحاج محمد بن احمد بن مسايب ولد في مطلع القرن الثامن عشر بتلمسان وهو ذو أصول أندلسية، له حلة حجازية منظومة بالشعر الملحون.

يحملون معهم كتبهم ومؤلفاتهم ورسائلهم ومدوناتهم لكي يبيعونها في البلدان المطروقة أثناء مسير الركب، بالإضافة إلى الحجاز بصورة خاصة لما بها من غزارة التواصل بين العلماء والمثقفين، وبالمقابل كان الحجاج يقومون بشراء ما لم تحزه أيديهم من الكتب والمصنفات في مختلف العلوم الشرعية والدنيوية، فظلا عن المناظرات والمناقشات والإجازات والتلاقح العلمي، فيعودون إلى أوطانهم وقد ارضوا إلى حد كبير نهمهم العلمي بالإضافة إلى تحقيق فريضة حج البيت الحرام.

وقد صرحت بهذا الغرض عديد النصوص الرحّلية الجزائرية نذكر منهم العالم أحمد بن عمار الجزائري[7]، الذي عثر الدكتور أبو القاسم سعد الله على إجازة له أجاز بها أحمد خليل المرادي الشامي مفتي الشام في عصره، فنص هذه الإجازة يستفاد منها في العديد من الأمور، أولها أن أحمد بن عمار قبل أن يجيز الشيخ المرادي وذكر فيها جملة من المشايخ الذين درس عليهم العلوم الشرعية من منقول ومعقول وفروع وأصول، وذكر تحديدا مشايخه المشارقة بمن فيهم المكيين وعلماء المدينة ومشايخها وعلماء مصر وأعطى لكل قطر شيخا (سعد الله، 1983، ص67)؛ فدراسة الشيخ أحمد ابن عمار على هؤلاء المشايخ الحجازيين والمشارقة، جاءت من خلال السفر لأداء فريضة الحج وبالتالي كانت الرحلة الحجية فضاء لتبادل العلم والإجازات.

وذكر أبو راس الناصري الجزائري أيضا مجموعة من المشايخ الذين درس عليهم في رحلته المشرقية لأداء فريضة الحج (الناصري، د.ت) ، كما أوصي أحمد بن مسايب الجزائري الحجاج الجزائريين باغتنام فرصة السفر مع ركب الحج لينهلوا من العلوم في الحواضر الكبرى لانتشار مجالس العلم فيها كالجامع الأزهر والاغتنام من فوائده الجمة (المجاجي، 2008)؛ وانسجاما مع المقصد العلمي الموازي للمقصد الديني، فقد حرص الحجاج على الحصول على أكبر ما يمكن تحصيله من الكتب التي يقفون عليها، وقد كلفهم دلك أحيانا بيع بعض المتاع، أو الاقتراض(القرشي، 2008).

فقد كان للحجاج آثار عظيمة في الحياة الفكرية، ففي رحاب الحرمين وفي موسم الحج يلتقي العلماء والفقهاء والمحدثون والحفاظ والمفسرون ويعقدون الحلقات العلمية ويستقبلون فيها طلاب العلم، وهكذا كان موسم الحج ندوة ثقافية علمية دينية (الدجاني، 1982)؛ يكثر فيها العمل ونسخ الكتب وكل هدا جعل الناس وخصوصا العلماء منهم يتحمسون ويتشجعون للقيام بالرحلة الحجية من اجل التبادل الفكري والثقافي، وحرية الرأي والمناقشة العامة وآداب الحوار العلمي (الأهرام، 1987)؛ فشكل ركب الحج والرحلات الحجية على امتداد العصور جسرا من الجسور المهمة التي عبرت من خلالها الكتب والمؤلفات المشرقية إلى المغرب الإسلامي، كما شكلت في ذات الوقت نافذة اطلع من خلالها المشارقة على مجموعات كبيرة من محتويات خزائن الغرب الإسلامي(القرشي، 2008)؛ كالمكتبة التي أشار اليها العياشي في مدينة توزر التونسية، وحرّص الحجاج على الاطلاع ما بمكتباتها من الكتب (العياشي، 2006).

3.3 الدور الاقتصادي لركب الحج

من خلال ما ذكرته سلفا عن الجوانب التنظيمية لركب الحج يجعلنا نعتبر الركب قافلة تجارية كبيرة، تضم من السلع والمنتجات ما لا يوجد في أقطار بحالها، ووجود هذه السلع كان بغية تزود القافلة خلال المسير وبغية المتاجرة بها أيضا، فكانت التجارة في موسم الحج وفي الطريق ضرورة من ضرورات الحاج والمسافر إذ لابد من الحصول على موارد مالية لتغطية نفقات الرحلة فقد تتجاوز الرحلة المدة الزمنية المحددة لها (الشوابكة، 2006).

7. هو أبو العباس احمد بن عبد الله بن عمار، له رحلة حجازية خلال القرن 18 لم تصل إلا مقدمتها تحت مسمى، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة الى الحبيب، انظر احمد بن عمار، نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، 1906، الجزائر، ص 3.

فأثناء تجهيز الركب يتم تجهيز السلع والمنتجات المحلية بغية أخذها للمتاجرة وقضاء الحوائج بها، وللتدليل على هذا الكلام نذكر ما قاله العياشي في رسالته إلى صديقه قاضي مدينة فاس، حيث أخبره عن أنواع السلع التي يجب عليه اقتناءها خلال سفره للحج مع الركب الفاسي (زمامة، 1984)؛ وهذه الوصايا التي قدمها تعتبر بمثابة تقرير عن المنتجات المغربية التي كانت تُؤخذ إلى الحجاز وتتم مبادلتها أو بيعها على طول مسارات ودروب الحج المغربية.

وهذا الارتباط بين الحج والتجارة كان ولا يزال وثيقا في العالم الإسلامي، وكان معظم الحجاج يقومون في الواقع بالتجارة في طريقهم إلى الحجاز وفي عودتهم منه، وعن طريق التجارة كان يتم تبادل العديد من السلع، وكان يخدم على هذه التجارة من الموانئ التجارية المنتشرة على طول طريق الحج (علي عمر، 2001)؛ حيث تمكنت مدن وقرى عديدة من التخصص في صناعات ومنتجات وخدمات محددة على امتداد طرق الحج التي اخترقت الأقاليم بمحاذاة السواحل وعبر الصحراء والواحات والوديان ومن خلال الموانئ والعواصم (الأهرام، 1987).

ووجدت إشارات في بعض الرحلات عن وجود الفنادق بكثرة في البلاد التي يزورها الرحالة تدل على انه سكن للتجار والحجاج اعد لنزول المسافرين، وذكر ابن مسايب دلك في رحلته عند وصول الركب لمصر حيث أوصى الحجاج باختيار أحد الأديرة لكرائها (Ben chaneb ,1900)؛ وذكرالدرعي ذلك حيث قال أن عديد الديار تبقى فارغة طوال السنة ليتم كراؤها للوافدين من حجاج بلاد المغرب(الدرعي، 2011)؛ وحتى ابن جبير المتقدم على الأولين زمنيا يصف لنا خدمة كراء الأديرة (ابن جبير، 1979).

وعند وفود أركُب الحجيج إلى مكة من كل مختلف الجهات لإقامة الفريضة، فإن مكة تغدو اكبر أسواق المسلمين في تلك الأيام، حيث يجتمع فيها أهل الشرق وأهل الغرب، تباع أنواع مختلفة من السلع ومن الذخائر النفيسة كالجواهر والياقوت، وسائر الأحجار ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود، والعقاقير الهندية إلى غير ذلك ما يجلب من الهند بالإضافة إلى السلع العراقية واليمانية والخرسانية والبضائع المغربية ما لا ينحصر ولا يضبط (ابن جبير، ص97)؛ وتختلط في هدا الموسم العملات والمكاييل والأوزان، فتكون الأسعار باهظة في سنة وتكون مليحة في سنة، فكان الكيل بالقدح[8]، والحنطة، والعملة بالقرش والريال، والقرنصي، ويتم تبادل السلع بالأوزان والمكاييل حسب قيمة السلعة (بن إسماعيل، 2006).

4.3 الدور السياسي لركب الحج

لركب الحج دور سياسي كبير في مختلف الأقطار الإسلامية على غرار الجزائر في العهد العثماني، إذ يعتبر ركب الحج وجها من أوجه التواصل بين السلطة السياسية أو السلطة الحاكمة في الجزائر مع القاعدة أو الشعب مباشرة، ويتجلى ذلك من خلال تزكية أمير الركب ومنحه الصبغة الرسمية للدولة، وهو ما يشبه حاليا مدير الديوان الوطني للحج والعمرة، فمن خلال تدخل السلطة في تعيين أو تزكية أمير الركب فإن ذلك يعتبر وجها من أوجه رعاية السلطة للشعب، وقد ثبتت هذه العلاقة من خلال العديد من الرحلات الجزائرية، مثل رحلتي المجاجيوالورتلاني، حيث ذكر الأول وفادة أمير الركب الذي سار فيه إلى السلطان بعد وصول الركب سالما إلى ارض الوطن، وذكر انه تم تزكيته مرة أخرى(المجاجي، 2008)؛ وكذلك الحال للركب الذي سار فيه الورتلاني جرت تزكية امير هذا الركب من طرف سلطان الجزائر العثماني قبل خروج الركب من أرض الوطن (الورتلاني، 1908).

كما لم يكن تحقيق الفريضة هدفا وحيدا للحجاج على مر العصور، فبصرف النظر عن البعد الاقتصادي والاجتماعي والعلمي المصاحب للرحلة الحجازية، كانت كذلك تحمل غرضا سياسيا في بعض الأحيان، وابن بطوطة مثلا بدا رحلته بغرض الحج ثم دفعه حبه للسفر ليستمر في سلسلة رحلاته في مختلف البقاع والأصقاع وعندما أراد سلطان الهند محمد شاه بن تغلق أن يرسل سفارة إلى الصين اختار ابن بطوطة لذلك (الشوابكة، 2006)؛

8 القدح مكيال معروف عند أهل اليمن يساوي تقريبا 2.062 لتر.

وهدا أيضا يوضح أن السفر في ركب الحج يفتح آفاقا أخرى وغايات جديدة كالتي فتحت لابن بطوطة، فأصبح الرحالة الدبلوماسي انطلاقا من الرحلة الحجازية.

والحج فرصة للقاء، فقد سن الخلفاء سنة الارتباط بالسلطة فلا يحج أحد من القيادات أو الولاة إلا بإذن من الخليفة، وطبق دلك على زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام، وزوجات الخلفاء من بعده، كما أُتخذ موسم الحج منبرا يعلن فيه الخلفاء عن سياستهم التي عولوا إتباعها، وأخد البيعة فيه على رؤوس الملأ من الحجاج فتكون البيعة عامة ذات صفة شرعية، يزكيها اجتماع للحجاج، على أن دلك لم يمنع من حدوث متاعب واضطرابات، كما استغلت الفرق الدينية والأحزاب السياسية موسم الحج للتعبير عن نفسها واثبات وجودها فأصبح الحج موسما لبيان مختلف التيارات السياسية المختلفة (الدجاني، 1982).

ولم اعثر في الرحلات الحجازية الجزائرية النثرية منها والمنظومة التي اطلعت عليها أي إشارات عن أهداف سياسية في سياق الرحلة، غير أن هذا لا ينفي وجودها، في مصادر رحليّة ربما لم تصلنا، خاصة وان المنجم الرحليّ للبلاد الإسلامية اثبت وجود واحتواء الركب على الفكرة السياسية أحيانا.

خـاتمة

لقد كان تنظيم الركب يتم قبل الخروج من الجزائر بشكل كبير، فكانت توكل المهام وتوزع على أصحابها كلٌّ حسب تخصصه لضمان السير الحسن للركب انطلاقا من أمير الركب، كما كان التنظيم يتم مرحليا أيضا على حسب المسافات والمراحل المقطوعة وبالنظر إلى المستجدات والظروف التي قد تطرأ على الركب.

تعددت الأدوار التي كان ركب الحج سببا فيها على هامش المقصد الأساسي وهو تحقيق فريضة الحج وذلك من خلال تفاعل الركب مع الجغرافيا المطروقة عبر مراحل سيره نحو الحجاز، فأنتج لنا ملامح حياة اجتماعية ذات بعد إنساني وأخلاقي راقٍ، وفي الشق الثقافي كان ركب الحج كالسيل الجارف من العلوم والمعارف من جراء الاحتكاك والتلاقح العلمي في عديد المحطات والمراكز العلمية في طريق الحج ذهابا وإيابا، بالإضافة أن الركب كان سببا في بعض التغيرات السياسية عبر تاريخ الحج عموما، إذ كان السفر إلى الحج يحمل أحيانا أغراض سياسية، فيحدث أن يوفر ركب الحج لها المناخ المناسب للانتشار، وبهذا المفهوم كان الظعن إلى الحجاز يعد أيضا سفر لحضور مؤتمر عالمي تناقش فيه عديد الأمور السياسية التي تخص الأمة الإسلامية جمعاء.

المراجع

1. بن إسماعيل يحي بن مطهر، 2006. بلغة المرام في الرحلة إلى بيت الله الحرام 1211هـ/1797م، تحرير: عبد الله الحبشي، وحسني محمد ذياب، دار السويدي للطبع والنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.
2. بتس جوزيف، 1995. رحلة جــوزيف بتس "الحاج يوسف" إلى مصر ومكة والمدينة المنورة، ترجمة: عبد الرحمان عبد الله ياسر الشيخ، دار الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر.
3. بخوشة محمد بن الحاج الغوثي،2001. ديوان ابن مسايب، دار ابن خلدون، تلمسان.
4. التازي عبد الهادي، 1974. أمير مغربي في طرابلس (1143هـ-1731م) ليبيا من خلال رحلة الوزير الاسحاقي.
5. تشرشل، شارل هنري، 1974. حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للطبع والنشر، تونس.
6. بن جبير أبو الحسن محمد ابن أحمد، 1979. رحلة ابن جبير، دار بيروت للطباعة والنشر، د.ط، بيروت لبنان.
7. الدرعي أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر، 2011. الرحلة الناصرية 1709–1710، تحرير:عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

8. الدجاني الهام محمد هاشم، 1982. تاريخ الحج من عهد الرسول عليه السلام حتى نهاية العصر العباسي الأول، مذكرة ماجستير، إشراف: فاطمة عامر، وكالة الرئاسة لكليات البنات، كلية التربية للبنات بجدة، المملكة العربية السعودية.

9. الزياني أبو القاسم، 1991. الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تح: عبد الكريم الفيلالي، دار المعرفة للطبع، الرباط.

10. سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983.

11. الشوابكة نوال عبد الرحمان، 2006. أدب الرحلات الأندلسية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، أطروحة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، إشراف صلاح محمد جرار، كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية.

12. المجاجي عبد الرحمان، 2008. رحلة المجاجي دراسة وتحقيق آل سيد الشيخ سعاد، مذكرة ماجستير غير مطبوعة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران.

13. المكناسي محمد بن عبد الوهاب، 2003. إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب، تح: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.

14. بن عمار احمد، 1906. نحلة اللبيب بأخبار الرحلة إلى الحبيب، مطبعة فونتانة، الجزائر.

15. علي عمر سميرة فهمي، 2001. إمارة الحج في مصر العثمانية (963/ 11213هـ - 1798/1518)، مطبعة الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، مصر.

16. العياشي أبي سالم عبد الله بن محمد، 2006. الرحلة العياشية (1663-1661)، تح: سعد الفاضلي، سليمان القرشي، ج1، دار السويدي للنشر، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة.

17. الفكون عبد الكريم، 1987. منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تح: أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

18. ابن كثير الدمشقي، 1997. البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد الرحمن التركي، ج7، دار هجر للطباعة والتوزيع والنشر.

19. المصعبي إبراهيم بن بحمان،2006. رحلة المصعبي، تحقيق يحي بن بهون حاج امحمّد، Mondial print Service، غرداية، الجزائر.

20. مركز الأهرام للطباعة والنشر، 1987. الحج عبادة العمر، دليل الحاج والمعتمر، مطابع الأهرام التجاري، القاهرة، مصر.

21. الناصري أبو راس، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته، تح: محمد بن عبد الكريم، المؤسسة الوطنية للكتاب.

22. الأنصاري محمد جابر، 1992. التفاعل الثقافي بين المغرب والمشرق في آثار أبي سعيد المغربي ورحلاته المشرقية وتحولات عصره، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.

23. الورتلاني الحسين بن محمد، 1908. نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، مطبعة فونتانة، الجزائر.

24. بوعبدلي المهدي، (د.ت). عبد الكريم الفكون والتعريف بتأليفه منشور الهداية، مجلة الأصالة، العدد 51.

25. زمامة عبد القادر، 1984. مع ابي سالم العياشي في رحلته إلى المشرق، مجلة المناهل، س11، العدد30، الرباط، المغرب.

26. القرشي سليمان، 2008. دور الرحلات الحجية في نشر الكتب وتداولها بين المشرق والمغرب، مجلة رحال، سن1، ع1، دار مثقفون بلا حدود، نيقوسيا، قبرص..

27. مالكي سليمان بن عبد الغني،1999. الحركة العلمية في مواسم الحج خلال القرن السادس الهجري، مجلة الدرعية، س2، ع 6 –7.

28. Ben Messiab, 1900. «Itinéraire de Tlemcen à la Mekkah au 18 siècle, par: Ben Chaneb Mohamed, Revue Africaine, vol. 44.